الابتداء والتخلص والانتهاء في كتاب حسن التوسل الى صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي (725هـ) رؤية نقدية بلاغية

م.د. الاء أحمد حسن

كلية الآداب / جامعة الموصل

The Beginning, Release, and Rermination (Shihab AL- deen Al Halabi) (date 725h.) vision rhetorical critical

Lec.Dr. Alaa Ahmed Hasan Hassan AL- Obeidy

College of Arts / University of Mosul

ah80.ah@yahoo.com

Abstract

The Arabic has been distinguished throw a lot of other languages, by tho abundance of eloquence styles, its accuracy, the clarity of its indications, and the variety of expression made. The research paid special attention to one of the critic arts which was formed from both the basis of prose and poetry equally that is: (the beginning, release, and termination). These arts are featured as being related strongly to each other, to a degree they seem to be interrelated, and if one of them separated, might cause a defect, an error, or a shortage in speech leading to missing the meaning. This functional relations among these arts is a main reason for studying it collectively. We can say that the release and the terse represent two opposed lines semantically and formally, the first one is the begging and the last one is the termination.

The research included critics opinions and the rhetoric lists across eight Hijree centuries, according to descriptive, historical description formed on the basis of the critical views of the book. The good means to the prose making for (Shihab AL- deen Al Halabi) (date 725h.) the book has been selected from the eight century books, because it represented an important document for a lot of rhetorical, and critical arts, and because it's a good display for critical and rhetorical for the previous books in this field. The research depended, in his methodology on two axis:

The first dealt with the linguistic and terminological meaning to each of these arts. While the second pusuit the development of these arts according the historical, descriptive methodology. The research reviewed the opinions the Halabi introduced about (the beginning, release, and termination). And commenting on them in a mount of mere critical vision.

In addition to that, however. The study aimed at confining the critical ideas in the arts of (beginning, release, and termination). And mentioning the what occurred in them in short comings in terminology and semantic meanings. The research concluded the main research thoughts and most important results.

KEYWORDS: GETTING STARTED, DISPOSING, FINISHING, SHAHABUDDIN HALABI.

الملخص

لقد تميزت اللغة العربية عن كثير من اللغات الأخرى، من حيث وفرة الأساليب البيانية ودقتها ووضوح دلالتها، وتنوع طرائق التعبير فيها.

وقد وقف البحث عند أحد الفنون النقدية المهمة والتي تشكلت من أسس وأركان الشعر والنثر على حد سواء وهي (الابتداء والتخلص والانتهاء)، وتتسم هذه الفنون بأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً حتى لا تكاد تنفصل عن بعضها البعض وإذا حدث هذا الانفصال أحدث خللاً أو نقصاً في الكلام فلا يتم معناه؛ فكان للترابط الوظيفي بين هذه الفنون سبب أساسي لدراستها مجتمعة معاً.

ويمكن القول أن التخلص هوأن يقطع الشاعر كلامه الذي فيه ويستأنف كلاماً آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولايكون للثاني علاقة بالأول ، **ولقد ضمن البحث آراء النقاد والبلاغيين على مدى ثمانية قرون هجرية، تم بحثها على وفق المنهج**

التاريخي الوصفي المتشكل بالنظرات النقدية في كتاب ((حسن التوسل إلى صناعة الترسل)) لـ(شهاب الدين الحلبي) (ت725هـ)، وتم اختيار الكتاب من بين كتب القرن الثامن الهجري كونه يمثل وثيقة مهمة لكثير من الفنون النقدية والبلاغية، وهو معرض جيد للآراء النقدية والبلاغية للكتب الذي سبقته في هذا الميدان، واعتمد البحث في منهجه على محورين:

تناول الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي لكل فن من هذه الفنون.

وتعقب الثاني: تطور هذه الفنون على وفق المنهج التاريخي الوصفي، حيث قدم البحث الآراء التي عرضها الحلبي بشأن (الابتداء والتخلص والانتهاء) والتعقيب عليها بقدر من الرؤية النقدية المحضة.

وهدفت الدراسة أيضا إلى حصر الآراء النقدية المتعلقة بفنون (الابتداء والتخلص والانتهاء) ويأخذ أهم ما حصل فيها من قصور في المصطلح والدلالة.

واختتم البحث بخاتمة ضمت أفكار البحث الرئيسية وأهم النتائج التي توصلت إليها.

الكلمات المفتاحية: الابتداء، التخلص، الانتهاء، شهاب الدين الحلبي.

حسن الابتداء وبراعة الاختتام:

-الابتداء:

لم يختلف أهل اللغة في تحديد مفهوم الابتداء من حيث كونه أول الشيء وبدايته، فقال ابن فارس (ت395هـ): " الباء والدال والهمز افتتاح الشيء، يقال بدأتُ بالأمرِ، وابتدأتُ من الابتداء والله –تعالى– المبديء والبادئ" [1]، وقال تعالى: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ[2]. والافتتاح والاستهلال كلها مصطلحات تدور حول مفهوم واحد، وجمع ابن منظور (ت711هـ) هذه المعاني وأضاف إليها معنى الإنشاء والاختراع والسبق في الشيء إذ قال: " إن من أسماء الله –عز وجل– المُبدِيُ، وهو الذي أنشأ الأشياء واخترعها، وابتداء من غير سابق مثال، والبدء فعل الشيء أول"[3].

وفي اصطلاح البلاغيين والنقاد القدماء نالت المبادئ اهتماماً خاصاً لأنها أول ما يقرع السمع وهي تتضمن البكاء على الأطلال ووصف البعاد، وهي صفة القدماء في الشعر، ولعل الجاحظ (ت255هـ) أول من ذكر هذا المصطلح عندما قال: " الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه"[4]، وخص ابن قتيبة (ت276هـ)، –وهو من معاصري الجاحظ –لفظة الابتداء بدلالة افتتاح الكلام ومقدمات القصائد الغزلية والطللية، وقد تبعه في ذلك ثعلب (ت291هـ)، أما ابن المعتز (ت296هـ) فيعد أول من ذكر مصطلح الابتداء[5].

وقد ذكر النقاد والبلاغيون الافتتاح وأرادوا به الابتداء ومنهم ابن طباطبا (ت322هـ) إذ قال: "الابتداء بما يحسن السامع بما ينقاد إليه القول فيه قبل استتماله" [6]، أما أبو هلال العسكري (ت395هـ) فقد عرفه تعريفاً موجزاً بقوله: " الابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك وينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير منه ويستجفي من الكلام والمخاطبة والبكاء ووصف أقفار الديار وتشتيت الآلاف نعي الشباب وذم الزمان، ولاسيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني" [7]، ومن الابتداءات قول ذي الرمة[8]:

مَـا بَـالُ عَيْنِـكَ مِنْهَـا الْمَـاءُ يَنْسَـكِبُ كَأَنَّـهُ مِـنَ كُلَـى مَفْرِيَّـةٍ سَـرِبُ

ومن الجدير بالذكر أن ابن رشيق (ت456هـ) أشار إلى مذاهب الشعراء في افتتاح القصائد بالنسيب، لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطابع من حب الغزل، والميل إلى اللهو والنساء وان ذلك استدراج إلى ما بعده، قد حدد لنا ابن رشيق أنواع المذاهب في افتتاح القصائد وقسمها بين أهل البادية وأهل الحاضرة.

فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال، وصفة الطلول والحمول والتشوق بحنين الإبل ولمع البرق ومر النسيم، وذكر المياه التي يلتقون عليها.

وأهل الحاضرة يأتي أكثر تغزلهم في ذكر الصدود، الهجران، والواشين ومنعة الحرس والأبواب، وفي ذكر الشراب والندامى والورد والياسمين[9]، وقد أكد ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) في سر الفصاحة كلام من سبقه من النقاد والبلاغيين بأن الابتداء في القصائد يحتاج إلى التحرز فيه حتى لا يستفتح بلفظ محتمل أو كلام يتطير منه[10]، وقد افتتح أبو الطيب قصيدته التي مدح فيها عضد الدولة بقوله[11]:

أوْهِ بَـــــدِيلٌ مِـــــنْ قَـــــوْلَتي وَاهَـــــا لمَـــــنْ نَـــــأتْ وَالبَـــــديلُ ذِكْراهَـــــا

ويمكن القول بإن الكلاعي (ت550هـ) قد شارك سابقيه في تعريف الابتداء[12]، ونلحظ أن ابن الأثير (ت 637 هـ) الذي عد (براعة الاستهلال) من أنواع الفواتح وفيها يبتدئ الشاعر بما يدل على غرضه إذ جعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من هذا الكلام إن كان فتحاً ففتحاً، وان كان هنا فهناءً، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك المعاني، وفائدته أن يعرف من مبتدأ الكلام ما المراد به، ولم هذا النوع! إنما خصت الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه[13]، ومن الابتداءات الواردة في القرآن الكريم، التحميدات المفتتح بها أوائل السور، وكذلك الابتداءات بالنداء، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[14]، واعلم انه ليس من شرط الابتداء ألا يكون مما يتطير منه فقط فإن من الابتداءات ما يستفتح وإن لم يتطير منه[15].

وعده ابن أبي الإصبع المصري (ت 654هـ)، فرعاً من حسن الابتداء إذ قال: " قد فرع المتأخرون من هذه التسمية (حسن الابتداء) براعة الاستهلال وخص بها ابتداء المتكلم بمعنى ما يريد تكميله وان وقع في أثناء القصيدة" [16]، واستُشهِد على حسن الابتداء بقول زهير[17]:

صَـحا القَلـبُ عـن سـلمى وأقصـرَ باطِلُـهْ وَعُـــرّيَ أفْـــرَاسُ الصِّـــبَا وَرَوَاحِلُـــهْ

وعلى براعة الاستهلال بقول أبي تمام في فتح عمورية[18]:

السَّـــيْفُ أَصْـــدَقُ إنْبَـــاءً مِـــنَ الكُتُـــبِ فـــي حَـــدهِ الحَـــدُّ بَـــيْنَ الجِـــد واللَّعِـــبِ

ومن هنا نلحظ الفارق الدقيق بين المفهومين؛ وذلك لانحسار البراعة في الدلالة على المقصود بمعونة السياق، ثم شاع استخدام مصطلح الاستهلال عند الأدباء والنقاد والبلاغيين في القرن السابع ومنهم حازم القرطاجني (ت684هـ) بمفهوم جديد إذ قال:" يصدر الكلام بما فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع وما يؤثر فيها انفعالات وليشر لها حالاً من تعجب أو تهول أو تشويق أو غير ذلك"[19]. أنه وجد مادة ثَرية تركها البلغاء والنقاد الذين سبقوه فقام ببلورتها وترتيبها بشكل متدرج منظم يبنى على عقلية فلسفية تدعوا إلى التفكيك ثم الاستنتاج والتخلص، ويجب أن تكون المبادئ جزلة، حسنة المسموع والفهم، دالة على غرض الكلام وجيزة تامة[20]، وقد فصَّل القرطاجني القول في الابتداء فقال:" يجب أن تكون الصدور متناسبة النسج، حسنة الالتفاتات لطيفة التدرج مشعشعة الأوصاف بالتشبيهات ويجب أن يكون صدر المدح حسن السبك عذب العبارة مستطاب المعاني، ليناسب ما اتصل به من النسيب ويجب أن

تعتمد فيه مع ذلك الجزالة والمبالغة في الأوصاف، ومما يجب اعتماده حيث يقع وصف الحرب أن تفخم العبارات وتهول الأوصاف ويحسن الاطراد في اقتصاص ما وقع من ذلك، وان ترتاح النفوس حيث يقع التمادي في ذلك بإيراد المعاني تستطيبها وتبسط ما قبض منها تهول ووصف الحرب وتحسين الإحالة على التواريخ"[21].

ومن المبادئ ما يكون راجعاً إلى ما يقع في الألفاظ من حسن مادة واستواء نسيج في الألفاظ أو إلى ما يرجع إلى المعاني من حسن محاكاة وتطبيق مفصل بالنسبة إلى الغرض وما جرى مجرى ذلك مما يتحسن في المعاني أو إلى ما يرجع إلى النظم في أحكام مبنية أو إبداع صيغة ووضع ما ناسب ذلك مما يحسن في النظم، أو إلى ما يرجع إلى الأسلوب[22].

أما شهاب الدين الحلبي فقد فصل القول في الابتداء فقال: "هذه تسمية ابن المعتز وارد بها ابتداءات القصائد وقد أطلق المتأخرون تسمية براعة الاستهلال: وهو أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببنية أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة، أو معظم مراده، والكاتب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره ليبنى كلامه على نسق واحد دل عليه من أول وهلة علم بها مقصده إما في خطبة تقليد أو دعاء كاتب" [23]، ومن الابتداء قول المتنبي في الصلح الذي وقع بين كافور وبين مولاه[24]:

حَسَـمَ الصّـلْحُ مـا اشـتَهَتْهُ الأعـادي وَأذاعَتْـهُ ألْسُـنُ الحُسّـادِ

وأمثلة هذا الباب كثيرة نظماً ونثراً وينبغي ألا يبتدئ بشيء يتطير منه كقول المتنبي[25]:

كفـى بـكَ داءً أنْ تـرَى المـوْتَ شـافِيَا وَحَسْـبُ المَنَايَـا أنْ يكُـنّ أمانِيَـا

ومن أحسن ابتداءات الجاهلية قول النابغة الذبياني [26]:

كِلِينـي لِهَـمٍّ، يـا أُمَيْمَـةَ، ناصِـبٍ، وَلَيْـلٍ أُقاسِـيهِ، بَطـيءِ الكَواكِـبِ

ومن احكم الابتداءات قول لبيد[27]:

ألا كُـلُّ شـيءٍ مـا خَـلا اللّـهُ باطِـلُ وكـلُّ نَعـيمٍ لا مَحَالَـةَ زائِـلُ

ومن المصطلحات المقاربة للابتداء هي: (الفواتح، الاستهلالات والمطالع)[28]، وبذلك أكد شهاب الدين الحلبي على ضرورة الاهتمام بالإبتداء في الفنون النثرية أي أن جعل الابتداء في النثر من خطبة أو دعاء أو رسالة أكثر ضرورة منه في النص الشعري وإن لم يُشِر إلى ذلك صراحة، كما لمنحنا ولم يأت بجديد في هذا الجانب وإنما آثر موافقة من سبقه من النقاد والبلاغيين.

- حسن التخلص :

التخلص في اللغة هو تنقية الشيء وتهذيبه فـ "الخاء واللام والصاد، أصلٌ واحدٌ مطرد، يقولون: خلَّصهُ من كذا وخلُصِ هو"[29].

وجاء في اللسان: " خَلَصَ الشيء إذا كان قد نَشب ثم نَجا وسَلِم، وأخلص الشيء اختاره، والتخليص النتيجة من كل منشب تقول: خلَّصته من كذا تخلِيصاً؛ أي: نَجيته، وخلُص إليه الشيء وصل، وخلَص الشيء بالفتح خَلص خَلوصاً، أي: صارَ خالصاً، وخلُصَ الشيء خلاصاً، الخلاص مصدر الشيء الخالص"[30].

ونلحظ أن التخلص يسير في اتجاهين:

الأول: بفعل فاعل (التكلم) **والثاني:** ميل الشيء إلى أن يخلص بذاته، في حين جعله الخليل (ت170هـ) مما يشتبك بغيره فيحتاج استخلاصه إلى حركة "فخلصته، نحيته من كل شيء ينشب تخليصاً، وتخلصته كما يتخلص الغزل إذا التبس"[31]. وقد دخل اللفظ الإطار المعنوي من خلال حديث الفيروز آبادي (ت817هـ) من كون الاستخلاص مرتبطاً بالنفس بقوله: "وخلص تخليصا أعطى الخلاص، وخالصه صافاه واستخلصه لنفسه"[32].

وتعد فكرة التخلص واحدة من حزمة النظرات التي وجهها نقدنا القديم إلى القصيدة العربية على الإجمال، ولعل أبا عبيدة معمر بن المثنى (ت209هـ) أول من ذكر مصطلح التخلص في نص نقله عنه الحاتمي إذ قال: "أحسن تخلص للعرب تخلصت به من بكاء طلل، ووصف إبل، وتحمل أظعان، وتصدع جيران بغير (دع ذا)، و(عد عما ترى) و(اذكر كذا) من صدر إلى عجز، لا يتعداه، شاعر سواه ولا يعلقه بما عداه"[33] فيظهر من كلام أبي عبيده أن صيغ (دع ذا) و(سل) و(عد عما ترى) وسائل انتقال استخدمت للربط بين أجزاء القصيدة ذوات الأغراض المختلفة كالغزل والرثاء والهجاء، فكانت جسورا لفظية تربط بين أغراض القصيدة الواحدة، وأكد في كلامه أنَّ هذه الصيغ ليست الموضع الوحيد للتخلص؛ فالروابط موجودة بين أجزاء القصيدة عند كل جزء، وأن للتخلص روابط ثرية متعددة وليست مقيدة بهذه الصيغ[34]، كما في قول زهير[35] :

دَعْ ذا وَعَـــدّ القَـــوْلَ فـــي هَـــرِمٍ خَيـــرِ البُـــداةِ وسَـــيّدِ الحَضْـــرِ

وانطلق ابن طباطبا (ت322هـ) منطلقا جديدا في رصده لحركة التخلص في الشعر وأغراضه فقال: "إن للشعر فصولا كفصول الرسائل فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه، على تصرفه في الفنون صله لطيفة، فيتخلص من الغزل إلي المديح ومن المديح إلي الشكوى بألطف تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله"[36].

كما يمثل التخلص الخطوة الثانية في العمل الإبداعي، وهو يعتمد على مقدرة الأديب ومهاراته الفنية "ومن الناس من يسمي الخروج تخلصاً أو ترسلاً، وأولى بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى، ثم عاد إلى الأول واخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان فيه" **(37)**.

وقد أكد ابن سنان (ت466هـ) كلام من سبقه من النقاد والبلاغيين فجعل التخلص ضرورة من ضرورات صحة النظم والنسق عندما قال: "أن يستمر الشاعر أو الناقد في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حيث يكون متعلقاً بالأول وغير منقطع عنه"**(38)**.

وذكر الكلاعي التخلص في فصل التخلص من الغرض المذكور وتكلم عن النثر والرسائل والتخلص في النثر عنده لم يتعد عن الشعر[39].

وقد أكد ابن الأثير الجزري كلام من سبقه وهو أن التخلص "أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فيما هو فيه إذ أخذ في معنى غيره وجعل الأول سبباً على حذق الشاعر وقوة تصرفه من أجل نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعاً للوزن والقافية فلا تؤتيه الألفاظ على حسب إرادته، أما الناثر فانه مطلق العنان يمضي حيث شاء، فلذلك يشق على الشاعر التخلص أكثر من الناثر"[40]، ومن المصطلحات التي تناقض مفهوم التخلص مصطلح الاقتضاب فإنَّه ضد التخلص؛ وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي فيه، ويستأنف كلاماً آخر غيره من مديح وهجاء أو غير ذلك، ولا يكون الثاني علاقة بالأول وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين ويمكن القول أن التخلص والاقتضاب يمثلان خطين متعاكسين دلالياً وشكلياً رأسهما الابتداء، وآخرهما الانتهاء والخاتمة [41]، وأدرج ابن أبي الإصبع المصري (ت645هـ) التخلص تحت باب أطلق عليه (براعة التخلص) هي صنعة أطلقت على التخلص ليصبح مصطلحاً مقروناً من الوصل[42]، ومن ذلك قول أبي تمام: [43]

يقَـولُ فـي مـومسٍ صَـحبْي وقـدْ أَخـذَتْ بِنَـــا السُّـــرى وخُطـــا المَهْرِيَّـــةِ القُـــودِ

أمَطْلـــعَ الشَّـــمْسِ تَنْـــوي أَنْ تَـــؤُمَّ بِنـــا فقلـــتُ كـــلاَّ ولكـــن مَطْلِـــعَ الجُـــودِ

أمَّا حازم القرطاجني فقد ذكر التخلص. بقوله: " في ما يقع الكلام أحسن موقعه ويجريه على أقوام مجارية من أضداد هذه الأشياء، ومما يجب اعتماده في التخلص هو منقلة من مناقل الفكر في ما تخلص إليه، فيجب أن يعتمد فيه بهذا البيت الثاني من مطلع القصيدة" (44).

ومن الجدير بالذكر انه قد أوغل في بحث موضوع التخلص وبيَّن الأمور التي يجب اعتمادها في التخلص فقال: هو التحرز من انقطاع الكلام من التضمين والحشو والإخلال واضطراب الكلام وقلة تمكن القافية والنقلة بغير تلطف والاضطراب في ذلك إلى الكناية عما يجب التصريح به والإبانة عنه (45)، ويمكن القول أن شهاب الدين الحلبي قد شارك سابقه من النقاد والبلاغيين في مفهوم التخلص(46) فقال: "هو أن يكون التشبيب أو النسيب ممتزجاً بما بعده من مزج وغيره غير منفصل عنه" (47)، كقول البحتري: (48)

رِبَـــاعٌ تَـــرَدّتْ بالرِّيَـــاضِ، مَجُـــودَةٌ بكُـــلّ جَديـــدِ المـــاءِ عَـــذبِ المَـــوَارِدِ

إذا رَاوَحَتْهَـــا مُزْنَـــةٌ بَكَـــرَتْ لَهَـــا شـــآبيبُ مُجْتَـــازٍ عَلَيْهَـــا، وَقَاصِـــدِ

كـــأنّ يَـــدَ الفَـــتحِ بـــنِ خَاقَـــانَ أَقْبَلَـــتْ تَليهَـــا بتِلْـــكَ البَارِقَـــاتِ الرّوَاعِـــدِ

وقول المتنبي: (49)

نُـــوَدّعُهُمْ وَالبَـــيْنُ فينَـــا كأنّـــهُ قَنَـــا ابـــنِ أبـــي الـــهَيْجاءِ فـــي قلـــبِ فَيلَـــقِ

وبذلك يعد حسن التوسل إلى صناعة الترسل مكملاً للكتب النقدية والبلاغية خلال ثمانية قرون في استيفاء مفهوم التخلص وبراعته في الشعر والنثر(50).

- **حسن الانتهاء وبراعة الاختتام :**

إن ما يُميز هذا المفهوم دلالته الواضحة في الإعلان عن نهاية الشيء، إذ يحمل هذا المعنى انتهاء الكلام وجاء في مدلوله اللغوي هو: "مرحلة من المراحل الوصل بالشيء إلى أقاصيه وأواخره، والوصول إلى نهاية كل شيء، وهو مدار كل عمل وقول وفعل يُبدأُ به" (52)، وجاءت الدلالة الاصطلاحية موافقة للمدلول اللغوي، فهي عند اصطلاح النقاد تعني آخر الشيء وغايته، فقالوا انتهاء الكلام بمعنى آخره ولاشك في إن الآخر ينطوي على غاية المعنى الذي أراده المتكلم.

وعبر ابن رشيق عن ذلك بقوله: " الانتهاء هو قاعدة القصيدة وآخره وما يبقى منها في الاسماع وسبيله أن يكون محكماً لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان الشعر مفتاحاً وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه" (53)، ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة، وفيها رغبة مشتهية ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد ليجعله خاتمة، كل ذلك رغبة في أخذ العفو، وإسقاط الكلفة، ألا ترى قد كره الحذق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء، لأنه من عمل أهل الضعف إلا الملوك: فإنهم يشتهون ذلك(54)، وبهذا المعنى قال تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(55)، أي أخراهم، واختار هذا الكلام القاضي الجرجاني وابن أبي الأصبع المصري للدلالة على انتهاء الكلام(56)، وبين الأخير أنه من مستخرجاته ، ولا يخفى أن النص الحسن يتطلب حسن اختتام، فالخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه والعناية في كماله عند

القرطاجني إذ قال: " إن ما يجب العناية بالتأنق فيه على الوجه المختار فتحسين المبدأ والتخلص، وأما ما تأكد به العناية ولاسيما عند من أخذ بمذهب أئمة المحدثين فتحسين البيت التالي للبيت الأول من القصيدة ليتناصر بذلك حسن المبدأ "[57]، كقول أبي تمام: [58]

شَـــهدْتُ لَقَـــدْ أقْـــوَتْ مَغَـــانِيكُمُ بَعْـــدي ومَحَّـــتْ كمَـــا مَحَّـــتْ وشَـــائِعُ مِـــنْ بُـــرْدِ

وأَنجَـــدْتُمُ مِـــنْ بَعْـــدِ إتْهـــامِ دَارِكـــمْ فيَـــا دَمْـــعُ أنجـــدْني علـــى ســـاكِنِي نَجْـــدِ

وقد أكد شهاب الدين الحلبي في حسن التوسل إلى صناعة الترسل كلام من سبقه من النقاد والبلاغيين " بأن الانتهاء هو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه المترسل أو الخطيب أو الشاعر مستعذبا حسنا لتبقى لذاته في الاستماع وقد سماه (براعة المقطع)"[59]، كقول أبي تمام:[60]

أَبْقَتْ بَني الأصْفَرِ المِمْرَاضِ كاسْمِهِمُ صُـــفْرَ الوجُـــوهِ وجلَّـــتْ أَوْجُـــهَ العَـــرَبِ

وكقول المتنبي: [61]

بقيـــت بقـــاء الـــدهر يـــا كهـــف أهلـــه وهـــــذا دعـــــاء للبريـــــة شـــــامل

ومن المصطلحات المقاربة للابتداء هي: (المقاطع والخواتيم)، وبذلك لم يختلف الحلبي عن من سبقه من النقاد والبلاغيين في الموروث النقدي والبلاغي خلال ثمانية قرون في مفهوم الانتهاء، وإنما وافق قولهم واستشهد على ذلك بالأمثلة النثرية والشعرية التي وقف عليها علماء عصره.

منزلة الابتداء والتخلص والانتهاء:

تكتسب بدايات الكلام أهميتها بوصفها انحرافاً عن صمت أو فراغ وتعد هذه البدايات تأسيساً لمتوالية من المعاني التي تعلن في اكتمالها الأخير ولادة نظام، قال حازم القرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء...) اعتنوا باستفتاحات الفصول واجتهدوا في ان يهيئها بهيئات تحسن بها مواقعها في النفوس وتوقظ نشاطها لتلقي مايتبعها وما يتصل بها[62].

" وفي الكلام ماله صورة يصير بها لائقاً أن يكون رأس كلام ومفتتح قول، ومنه ما لا يليق بالمبادئ ولا يكون له هيأة تصلح لها ويجب أن يجتلب القول للمبادئ من المعدن الأول"[63].

ومن فضائل الابتداء الحسن أن يكون حسناً بديعا ومليحا وكان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، ومن خصائص الابتداء الحسن ما ابتدأ به وصف ما يكون في الحال مما له إلى غرض القول انتساب شديد كافتتاح مدح القادم من سفر بتهنئة بالقدوم وافتتاح مدح من ظفر بأعدائه بوصف ذلك وتهنئته به، ثم يتبع ذلك بذكر فضائل الممدوح ونشر محامده[64].

إن الاهتمام بالمطالع والاستهلالات وتحسينها نالت منزلة كبيرة وعناية فائقة في هذه الصناعة: إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها المُنَّزلة من القصيدة منزلة الوجه، تزيد النفس ابتهاجا ونشاطا لتلقي ما بعدها أن كان بنسبة من ذلك، ولا يخلو الابتداع في المبادئ من أن يكون راجعا إلى ما يقع في الألفاظ من حسن مادة واستواء نسيج ولطف انتقال وتشاكل اقتران وإيجاز عبارة وما جرى ذلك، ولا يخلو الإبداع.

والشعراء متفاوتون في باب التخلص وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة في إيراد الألفاظ واختيار المعاني، كالبحتري فإن مكانه في الشعر لا يجهل، وشعره السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريباً ضوءها بعيداً مكانها، وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الإطراب، مع هذا فانه لم يوفق في التخلص من الغزل إلى المديح، بل اقتضبه اقتضاباً[65].

وذكر الحاتمي من شروط التخلص أن يقع الاتصال ويؤمن الانفصال[66]، وكان القدامى يتهمون (البحتري) بالتقصير في الخروج من النسيب إلى المديح، وقد أشارت طائفة من القدامى والمحدثين إلى التخلص بوصفه سمة أسلوبية في النص القرآني، ولكن أحداً لم يدرك أن التخلص: هو فن الانتقال من غرض إلى آخر، ومن معنى إلى آخر مختلف[68].

ويجتهد الشاعر الحاذق في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدها الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور، وتستلهمهم إلى الإصغاء، وقد احتذى البحتري على مثلهم، إلا في الاستهلال فإنه عُني به فاتفقت فيه له محاسن، أما أبو تمام والمتنبي فقد ذهبا في التخلص كل مذهب، واهتما به كل اهتمام، واتفق للمتنبي فيه خاصة ما بلغ المراد، وأحسن وزاد [69].

قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر لقد طار اسمك واشتهر، فقال: لأبي! أقلت الحز وطبقت المفصل، وأصبت مقاتل الكلام، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم ولطف الخروج إلى المديح والهجاء، وقد صدق؛ لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح ولطافت الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح وخاتمة الكلام أبقى في السمع، والصق بالنفس لقرب العهد بها، فإن حسنت حسن وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها[70]، فقد جاء في الحديث الشريف قال النبي (ﷺ): «**إنما الأعمال بخواتيمها**»[71].

الهوامش

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس: مادة (بدأ): 212/1.

(2) سورة البروج، الآية: 13.

(3) لسان العرب، ابن منظور: مادة (بدأ): 1/ 26– 37.

(4) البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ: 1/ 112.

(5) ينظر الشعر والشعراء، ابن قتيبة: 20، وينظر قواعد الشعر، أبو العباس ثعلب: 76، وينظر كتاب البديع، ابن المعتز: 75 .

(6) عيار الشعر، ابن طباطبا: 29 .

(7) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري: 431 .

(8) ديوان ذي الرمة: 1/ 9.

(9) ينظر: العمدة: 225/1 .

(10) ينظر: سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي: 183 .

(11) ديوان المتنبي: 269/4 .

(12) ينظر: أحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي: 55، وينظر: البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ:400.

(13) ينظر: المثل السائر: 3/ 96 .

(14) سورة النساء، الآية: 1 .

(15) ينظر: المثل السائر: 3/ 104 .

(16) تحرير التحبير: 1/ 168 .

(17) ديوان زهير ابن أبي سلمى: 124 .

(18) ديوان أبي تمام: 40/1 .

(19) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: 310 .

(20) ينظر: المصدر نفسه : 306 .

(21) ينظر: المصدر نفسه: 306 .

(22) ينظر: المصدر نفسه: 309.

(23) حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين الحلبي: 250–251.

(24) ديوان المتنبي: 276/1.

(25) المصدر نفسه: 281/4.

(26) ديوان النابغة الذبياني:54.

(27) ديوان لبيد:120.

(28) ينظر: النص القرآني من الجملة إلى العالم، وليد منير: 79 .

(29) مقاييس اللغة، مادة (خلص): 208/2.

(30) لسان العرب، مادة (خلص): 292/8.

(31) العين، الفراهيدي، مادة (خلص): 186/4–187. وينظر: تهذيب اللغة، الازهري (خلص): 137/7.

(32) القاموس المحيط، مادة (خلص): 797/1. وينظر: الصحاح، الجوهري: 3/ 1037.

(33) حلية المحاضرة، أبو علي الحاتمي: 217/1. ينظر: قواعد الشعر، أبو العباس ثعلب: 60.

(34) ينظر: التخلص في القصيدة الأدبية من الصيغة إلى البنية، هاني توفيق نصر الله: 104.

(35) ديوان زهير بن أبي سلمى: 55.

(36) عيار الشعر، ابن طباطبا: 178، وينظر: حلية المحاضرة، الحاتمي: 215/1، وينظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري: 452.

(37) العمدة:234/1.

(38) سر الفصاحة: 268.

(39) أحكام صنعة الكلام: 69.

(40) المثل السائر: 121/3.

(41) ينظر: التحرير والتحبير: 433/2.

(42) ينظر: المصدر نفسه: 124/3

(43) ديوان أبو تمام: 121.

(44) مناهج البلغاء وسراج الأدباء: 318–319.

(45) ينظر: المصدر نفسه: 320–321.

(46) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: 254.

(47) ديوان البحتري: 551/1.

(48) ديوان المتنبي: 308/2.

(49) المثل السائر: 124/3.

(50) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ابن رشيق القيرواني: 136/1.

(51) تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري:310/2.

(52) لسان العرب، مادة (نهى): 346/15، ينظر: مقاييس اللغة: 359/5.

(53) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 241/1.

(54) ينظر: المصدر نفسه: 242/1.

(55) سورة الأحزاب، الآية: 40.

(56) ينظر: الوساطة: 48، وينظر: بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري: 343.

(57) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: 307.

(58) ديوان أبي تمام: 112.

(59) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: 255.

(60) ديوان أبي تمام: 73/1.

(61) ديوان المتنبي: 120/3.

(62) ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني: 296.

(63) المصدر نفسه: 305.

(64) ينظر: المصدر نفسه:310.

(65) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير الجزري: 128/3.

(66) ينظر: حلية المحاضرة: 215/1

(67) ينظر: النص القرآني من الجملة إلى العالم: 51-52.

(68) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني: 48.

(69) ينظر: العمدة: 217/1.

(70) صحيح البخاري: باب القدر: 155/8

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات،والصلاة والسلام على اشرف الكائنات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الثقاة.

وبعد:

فان الأساليب البلاغية والعبارات اللغوية لا يمكن أن يحيط بها مثل هذا البحث وحسبه أن يلم بأطراف منها ويدل عليها.

خلصت مسيرة البحث إلى جملة نتائج أهمها:

- تبين أن مصطلحي الابتداء والانتهاء أوسع واشمل في دلالاتهما اللغوية والاصطلاحية من مصطلحات أخرى مقاربة لهما يطلق عليها المفهوم نفسه.
- تباينت رؤية النقاد والبلاغيين في تحديد تسمية المصطلحات (الابتداء والتخلص والاختتام)، وان اتفقت في مضمونها فقد أدرجها بعضهم مع تسميات أخرى مثل: (الاستهلال، وحسن الخروج،وبراعة الانتهاء، والمطلع، والاستفتاح)، وغيرها.
- اتضح لنا من خلال البحث أن الابتداء والاختتام ليس بالضرورة أن يكونا متمركزين في اللفظة الأولى أو الأخيرة، فقد يتعديا ذلك إلى ألفاظ وجمل وعبارات، حيث يتشارك التركيب اللغوي ليكون وحدة متكاملة مولداً دلالات عديدة.
- يتجلى واضحا أن لحسن التخلص فاعلية مع الفنون البلاغية الأخرى ولعل أهم صورة يتعاضد فيها هذا الفن البلاغي هي التعاضد مع فن الإجمال والتفصيل حيث أن السمة الغالبة لحسن التخلص كونه حداً وسطاً يتنقل به من الإجمال إلى التفصيل.
- يعد ابن المعتز أول من أطلق تسمية الابتداء على بدايات النص الشعري واستنبط المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال، ثم فرق ابن أبي الإصبع المصري بين براعة الاستهلال وحسن الانتهاء، وهو أول من تنبه إلى هذا الفارق كما لمحنا.
- فضل الحلبي أن يكون موافقا لأراء سابقيه من النقاد والبلاغيين في بعض المواضع، بل وجدناه قد وافقهم في جل آرائهم بشان هذه الفنون ((الابتداء التخلص الاختتام)) وان كان قد خالفهم بالاستشهاد من النص الشعري والنثري المخالفة لأمثلتهم كما لمحنا ذلك في كتابه.

- تميز كتاب الحلبي بحسن التقسيم والتنظيم والتبويب للفنون النقدية والبلاغية وحسن عرض المادة المعرفة التي تتحدد بثمانية قرون.
- أكد الحلبي على ضرورة الاهتمام بالابتداء في الفنون البلاغية النثرية اكثر منه في الفنون الشعرية وان لم يشير إلى ذلك صراحةً، كما لمحنا، ولم يأت بجديد في هذا الجانب، وإنما آثر موافقة من سبقه من النقاد والبلاغيين، ولما كانت مدار الأمور تقاس بخواتيمها فإننا نسأل العلي القدير أن يكون عملنا هذا ممن يحسن خواتيمه.

قائمة المصادر والمراجع

- إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي (ت550هـ)، محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، (د. ط)،1966م.
- البداية في النص الروائي، تأليف صدوق نور الدين،ط1،1994،دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، د.ط ، د.ت.
- البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ: تحقيق:عبد آ،علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط،1987م.
- بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق: حنفي محمد شرف، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2، د.ت.
- البديع، عبد الله بن المعتز (ت299هـ)، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس: أغناطيوس تراشقوفسكي، أعادت بالأوفسيت، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط3،(1388هـ-1968م).
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القران، ابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ)، القاهرة، 1983م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري (ت370هـ)، ت: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، (1384هـ-1387هـ) (1964م-1967م).
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين الحلبي، تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، دار الحرية للطباعة، بغداد،1980م.
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي (ت388هـ)، تحقيق: جعفر الكتابي، دار النشر، د.ط، 1979م.
- ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبدة عزام، دار المعارف، مصر.
- ديوان أبي تمام، شرح وتعليق د.شاهين عطية، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، (1387هـ -1968م).
- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبو البقاء العكبري المسمى بالبنيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهارسه، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ تطاوي، دار المعرفة، بيروت،(1397هـ-1978م).
- ديوان البحتري، شرح وتحقيق: حسن كامل، دار المعارف، مصر.
- ديوان ذي الرمة، كارليل هنري هيتس مكارتيني، طبع كلية كمبريج،1337 هـ -1919م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.
- ديوان لبيد ابن ربيعة العامري، مكتبة الأندلس، بغداد.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق المحامي فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتابة والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1969 .
- سر الفصاحة، أبو محمد بن عبد الله بن محمد سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت466هـ)، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر، القاهرة، ط1، (1372هـ-1953م).
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط2 1966م.

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 398هـ)، ت: احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملاين، القاهرة، ط1، 1987م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت256هـ)، تحقيق:مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط3، (1407هـ1987م).
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (ت456هـ)، حققه وعلق على حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5،(1401هـ-1981م).
- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي (ت322هـ)، تحقيق: طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (1375هـ-1956م).
- العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، (ت 175هـ) ت: مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، ط1، 1995م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت 817هـ)، دار الفكر، بيروت، 1983م.
- قواعد الشعر، أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب(ت291هـ)، تحقيق: رمضان عبد التواب، ط1، (1414هـ-1994م).
- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري (ت395هـ)، تحقيق: علي محمد البجاري – محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، (1377هـ-1952م).
- لسان العرب، محمد مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت711هـ)، تحقيق: محمد ظاهر، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، (1374هـ-1955م).
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير الجزري (ت637هـ)، تحقيق: بدوي طبانة واحمد الحوفي، مطبعة الرسالة، القاهرة، د.ط، د.ت.
- مقاييس اللغة، أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا (ت395هـ)، تحقيق:عبد السلام محمد هارون، مصطفى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، ط2،(1390هـ1970م).
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني(684هـ)، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، (1966م).
- النص القرآني من الجملة إلى العالم، وليد منير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1،(1418هـ- 1997م).
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة.

البحوث والدوريات المنشورة

- التخلص في القصيدة الأدبية من الصيغة إلى البنية، هاني توفيق نصر الله، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد 14، العدد (5)، عام 1999م.